المتنبي في قصر الثقافة

إبراهيتي الهواري

في يوم من أيام العطلة الصيفية اشتقت إلى ضوضاء المدينة فقررت القيام بجولة عبر شوارع الباهية (وهران).. وبينما أنا أمشي وسط حشد كبير من البشر، إذ استرعت انتباهي لافتة معلقة قرب أحد المقاهي مكتوب عليها بخط يسر الناظرين: «مهرجان الثقافة العربية». فدعتني رغبتي لحضور هذا المهرجان.

دقائق قليلة كانت كافية للوصول إلى قصر الثقافة حيث تجمع خلق كثير من مختلف الأعمار، ذكورا وإناثا. انتابني شعور بالعزة والكرامة وأنا ألج بهو القصر وقلت: «الحمدلله الذي وجدنا ثقافتنا مأوى يحفظها من التشرد والضياع.

اتخذت لنفسي مكانا بين الحضور، ورحت أتصفح وريقات الجريدة ريثما يبدأ المهرجان، في حين جلس بجانبي شخص غريب الملامح ذو هيئة عربية أصيلة، ومن دون اكتراث مني تابعت قراءة الجريدة، ولكن فضولي أبى عليّ ذلك، فلم أجد بدا من التعرف على هذا الشخص. دنوت منه في أناة ثم قلت: السلام عليكم.

- نظر إليّ نظرة العظيم رادا عليّ التحية: وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته.

- يبدو أنك غريب عن البلدة؟

- نعم، وغريب عن زماننا؟

- عن زماننا؟! ماذا تقصد؟

- بعد ما بلغنا خبر المهرجان، انتدبني أهل عصري للاطلاع على أحوال ثقافتنا الأصيلة.

- أهل عصرك! أنا لم أفهم عنك شيئا.. بالله عليك أفصح عن هويتك، وقل من أنت؟ وما عصرك؟

- أنا.. أنا القائل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم

- ماذا ؟! يعني أنك المتنبي شاعر العصر العباسي؟!

- نعم..

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم

- عجيب! المتنبي في وهران.. المهم، كيف هي أحوال عصرك؟!

- آه من أحوال عصري، لقد

امتدت إليه أيادي صندوق النقد الدولي اللعين وصيّرت أهلي بشروطه القاسية في زمرة الفقراء والمساكين مقابل دريهمات لا تغني ولا تسمن من جوع، حتى الشعراء لم يسلموا من شروره، ونتيجة الضائقة التي أصابتهم هجر بعضهم أرض الوطن، وبعضهم الآخر لم يجد مفرا من بيع (السجائر) لسد رمقه ورمق عائلته.

– غريب!

– والأغرب من ذلك أن مديره لم يكتف بعصرنا بل دفعه طمعه وجشعه إلى زيارة العصر الجاهلي في الأسبوع الماضي، حيث قام بإغلاق سوق عكاظ وتسريح جميع الشعراء مقابل مساعدات مادية.

– وما كان مصير الشعراء؟

بعضهم أحيل على البطالة، وبعضهم يشتغل ضمن الشبكة الاجتماعية، وأما البقية فقد هاجرت إلى العصر الحجري خوفا من شر هذا الأخطبوط.

– دعك من هذا الأمر.. هيا لقد حان موعد انطلاق المهرجان.

أزيح الستار ليتقدم شاب في مقتبل العمر، حاملا مكبر صوت ثم قال مرحبا:

– سيداتي سادتي،ميدام ميسيو، يسرنا أن نرحب بكم في مهرجان الثقافة العربية

et que j espere in challah

ما يعجبكم».

صفق الجمهور، بينما بقي صديقي الشاعر متسمرا في مكانه فاغرا فاه، وعلامات الحيرة بادية على وجهه ثم صاح قائلا:

– بأي لسان يتحدث هذا الشخص؟

المتنبي

قلت بعفوية:

اللغة العربية طبعا.

– اللغة العربية؟! أتسمون هذا الهراء لغة عربية؟

حاولت أن أهدئ من روعه، لكني لم أفلح إلا بعد جهد جهيد.

إثر ذلك ظهر علينا أحد المغنين من الشباب برقصات وشطحات على أنغام موسيقى الراي، صفق لها الجمهور، هاتفا بحياة المغني.. التفتُ إلى صديقي الشاعر فلمحت العرق يتصبب من جبينه، وحاجباه مقطبان ثم قال غاضبا:

– ما هذا الكلام الذي يتغنى به مطربكم هذا؟

– إنه غناء الراي يا سيدي.

– وما غناء الراي؟

– إنه أعظم ما جادت به قرائح الشباب في عصرنا هذا.

– وتسمون هذا اللغو غناء؟!

– بل ثقافة يا سيدي.. فهو يعد من تقاليد مجتمعنا ويعبر عن طموح شبابنا.

نهض صديقي الشاعر من مكانه وعيناه جاحظتان،وفجأة انقض عليّ باللطم واللكم وهو يقول:

– تسمي هذا الهراء ثقافة، ألا تستحيي من أصالتك ومن عروبتك.

ولأني كنت ملقحا ضد الصراخ تحملت الآلام دون أن أنبس ببنت شفة.. وأردف صديقي قائلا:

– هذه جنازة الثقافة العربية وليس ما ادعيتموه، أردتم إحياءها ببهرجكم فإذا بكم تقتلونها وفي عقر دارها، شيدتم لها مقبرة مزخرفة وسميتموها قصر الثقافة كذبا وزرا.

– وما ذنبي أنا ياسيدي؟

– أنت وغيرك.. كلكم شركاء في الجريمة بصمتكم وبتصفيقكم المشجع لقتلة لغة الضاد، ولمنتهكي عرض ثقافتنا الأصيلة.

اعتراني شعور بالخوف من تهديده ووعيده، وعزمت على مغادرة القاعة ولكنه استوقفني قائلا:

– إنني سأرفع تقريرا شديد اللهجة إلى من انتدبني من أهل عصري مخبرا إياهم بالوضع المزري الذي تعيشه ثقافتنا العربية بين أظهر من ينتسبون إلينا زورا وبهتانا.

وازداد خوفي وقلقي.. نظرت إليه محاولا تهدئته حتى لا يشعر بنا أحد، ولكنه لم يأبه بمحاولاتي.. فجأة نهض من مكانه ممتشقا سيفه مما أثار الرعب في وسط الحاضرين، فتعالت الأصوات بالصراخ والعويل، وتحول المهرجان إلى فوضى عارمة بين هارب ومتسلق جدار.. حينئذ صاح في وجهي:

– لن يهدأ لي بال، ولن تقر لي عين حتى أجعلك عبرة لغيرك جزاء ما فعلتموه في حق الثقافة العربية.. ثم هوى بسيفه على رأسي فصرخت صرخة أنستني النطق بالشهادتين لأستيقظ مذعورا.. وحمدت الله أن كان حلما ولم يكن حقيقة، ومن حسن حظي لم يكن معي بالغرفة أحد وإلا عددت من المجانين!! ■